الأستاذة: لمياء عيطو

مقياس: مدخل إلى الأدب المغاربي المكتوب باللغة الأجنبية

المحاضرة موجهة لطلبة السنة الثانية دراسات أدبية (الفوج 03/02/01)

المحاضرة الثانية: ثلاثية محمد ديب "الدار الكبيرة"

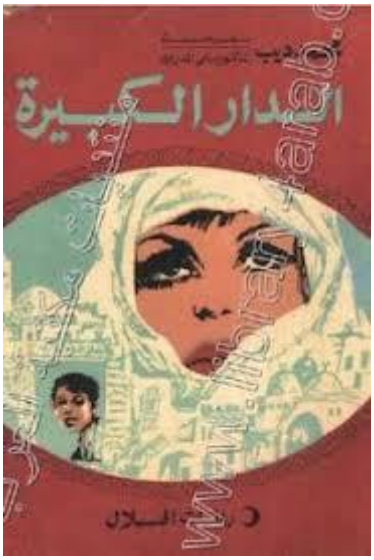

لقد أرسى محمد ديب ورفقاؤه لبنات الواقعية الانتقادية في الأدب الجزائري، بل وكثيرا ما تجاوزوها ليفتحوا أبوابا أكثر اتساعا في وجهه، حيث تجاوزت أعمالهم صالونات المثقفين ومناقشاتهم الفوقية عن العدالة والمساواة في ظل الحكم الاستعماري، ووهم التعايش السلمي بين الأهالي والمعمرين، فنزلت إلى الطبقات الدنيا من المجتمع وتحدثت عن هموم الناس البسطاء من عامة الشعب، ووصفت أحوالهم المعيشية القاسية، ومعاناتهم من الجوع والفقر والقهر، وتحدث عن النضال السياسي الجزائري، وعن المناضلين الذين يعيشون في الخفاء مطاردين من قبل البوليس المستعمر.

يعتبر محمد ديب من أهم الكتاب الجزائريين الذين كتبوا باللغة الفرنسية، صدرت له الثلاثية الشهيرة الدار الكبيرة، الحريق والنول، صدر الجزء الأول منها عام 1952م تناول فيها مجموعة أحداث تقع في دار سبيطار، وهي دار كبيرة تقع بمدينة تلمسان تعيش فيها مجموعة من عائلات الفقيرة، والجزء الثاني الحريق صدر عام 1954م حيث تخرج في الأحداث من مدينة تلمسان إلى أحد القرى المجاورة، والجزء الأخير من الثلاثية النول صدر عام 1957م، تعود فيها الأحداث لتظهر بنفس الدار في الجزء الأول.

الدار الكبيرة:

لقد بنى محمد ديب هذه الرواية وفق شخصية محورية هي الطفل عمر، ذا الأخير الذي يعايش مشكلتين أساسيتين، أولاهما متعلقة بالجانب الحياتي أو إن صح التعبير البيولوجي؛ حيث كان يعاني باستمرار من مشكلة الجوع، فمنزلهم الفقير لا يحوي ما يسد رمقه؛ لأن العائلة شديدة الفقر، فيظل طوال الوقت منشغلا بهذه المشكلة المستديمة، أما المشكلة الثانية فهي فكرية؛ حيث كان يحاول فهم ما يدور حوله من تصرفات الناس، ومعرفة الأشياء على وجهها الصحيح.

أسئلة كثيرة كان يطرحها عمر دون أن يجد لها الإجابة الشافية، تماما كسؤاله لذاته حول واقع الجوع الذي كان يعيشه مع أسرته: « لماذا نحن فقراء؟»، عمر لم يكن يسأل نفسه لماذا أنا فقير؛ لأن هذه الظاهرة كانت عامة حيث يعيش، سواء في الدار الكبيرة من الجيران، أو في المدرسة من الزملاء.

طبعا لم عقل عمر ولا سنه الصغير يسمحان له بالإجابة على أسئلته الكثيرة التي يطرحها على نفسه، لكن المؤكد أن تلك الأسئلة هي بداية تنامي الوعي لديه، فتجعله يحس على نحو غامض، أن الأمور غير طبيعية، ولا بد من تغييرها.

إذن مشكلة الجوع هي مشكلة طرحها الكاتب واستفاض في تحليلها والبحث في خلفياتها، لكن المشكل الثاني هو الذي ركز عليه ديب حيث عمل على تتبع مسار تنامي الوعي لدى شخصية عمر، فعبر عن أفكاره المتعلقة بتلك الفترة الاستدمارية بطريقة بشكل رمزي ممتاز، فعمر هو عينة فقط من الشعب الجزائري في فترة صعبة جدا، فترة الحرب العالمية الثانية، وشخصية عمر في الآن ذاته هي مرآة عاكسة لما عايشه الكاتب في سن الطفولة ومرحلة المراهقة، فقد عايش هو الآخر مرارة اليتم، حين فقد والده في سن الحادية عشر، فقد هو الآخر والده في مرحلة كان فيها بأمس الحاجة إليه ليجيب عن أسئلته التي تفرض نفسها بشدة عليه.

عمر والمدرسة الفرنسية / تعليم الكذب والتحفيز عليه:

إننا نتصور أن مشاعر الحيرة والشك التي راودت عمر أثناء درس الأخلاق، وهو يسمع زملاؤه يرددون ما جاء في الكتاب المدرسي " إن فرنسا هي وطننا الأم "، إنما هي مشاعر الحيرة والشك التي تكون قد راودت الكاتب نفسه باتجاه الدرس نفسه، حين كان تلميذا في المرحلة الابتدائية، وخاصة أن برامج الدراسة لم تكن تعرف تغييرا يذكركما أن فيها ثوابت غير قابلة للتغيير ومنها هذه المقولة في تعريف الوطن، ومثلها مقولة أجدادنا الغاليون وغيرها، ويكون الكاتب قد احتفظ بها كذكرى لا تمحي من ذهنه لما فيها من اللبس والمفارقة التي لا يمكن أن تنطلي حتى على الأطفال.*

من منكم يعرف ماذا تعني كلمة وطن؟

---

* في حوار أجراه محمد ديب مع إذاعة فرنسا الثقافية في شهر مارس 1997م، صرح بأن الشعب الجزائري لم يكن في يوم من الأيام يعاني من غياب الأم في الجزائر، ولكنه كان من غياب الأب؛ أي غياب قادة قادرة على تجنيد الشعب الجزائري حولها والسير به نحو الحرية والاستقلال.

عندما طرح المعلم هذا السؤال أصابت الحيرة التلاميذ ولم يجدوا سبيلا إلى الإجابة المطلوبة، حتى جاءت الإجابة من زميل لهم معيد للسنة كان قد لقن الإجابة على هذا السؤال العام الذي مضى فقال: "إن فرنسا هي وطننا الأم"، بعد ذلك أخذ التلاميذ بترديد العبارة، وراح عمر يدير السؤال في ذهنه ويعلق عليه وهو يمضغ قطة من الخبز :« فرنسا عاصمتها باريس. إنه يعرف ذلك، والفرنسيون الذين يرون في المدينة قد أتو من ذلك البلد. وللذهاب إليه والعودة منه لابد من عبور البحر، وركوب الباخرة، ولكنه يعرف أن البحر هو امتداد واسع من الماء المالح، والباخرة هي ما يشبه خشبة عائمة، وفرنسا هي خريطة متعددة الألوان، فكيف تكون تلك البلاد البعيدة كل البعد هي أمه؟ أمه في البيت، وهي عيني، وليس له اثنتين » .

لم تكن هذه هي المرة الأولى ولا الوحيدة، التي يكتشف فيها عمر مثل هذه المفارقات التي لا اسم لها سوى اسمها الصريح، ألا وهو الكذب. فقد كان يطلب من التلاميذ في موضوعات الإنشاء أن يصفوا مثلا سهرة أمام الموقد، ويحاول المعلم أن يسهل عليهم المهمة، فيقرأ عليهم مقتطفات تصف سهرة عائلية: «... تتحدث عم أطفال ينحنون باجتهاد على كتبهم، والمصباح يلقي ضوؤه على الطاولة، والأب غارق في أريكة يقرأ الجريدة، والأم تشتغل بالتطريز... إلخ ».

هذه الصورة التي طرحها الأستاذ لم تكن تمد لواقع عمر بأي صلة، فوجد عمر نفسه كذلك مضطرا للكذب، ليكتب بذلك نموذجا كتابي يوازي فيه ما قاله الأستاذ:« ...والنار تشتعل بالمدخنة، وتكتكات الساعة الجدارية، وجو البيت الهادئ، في حين يسقط المطر، وتعصف الرياح، وينزل الليل في الخارج، آه كم نشعر بالراحة في البيت بجانب الموقد».

وكان عمر يكذب كذلك بخصوص وصف البيت الريفي الذي يقضي فيه وعائلته عطلة الصيف:« اللبلاب يتسلق واجهة البناء، والساقية تغرد في المرج المجاور، والهواء نقي، أي سعادة في أن يتنشقه المرء بملء رئتيه ».

إن ما سبق التعرض إليه يفيد بأن عمر يشعر في قرارة نفسه أن ما كان المعلمون يلقنونه لهم لم يكن إلا كذبا، وأسوأ من ذلك أن يشعر التلاميذ بأنهم يدفعون من قبل المعلمين إلى الكذب ويشجعون عليه، ولذلك كان التلاميذ مضطرين إلى الكذب، خوفا من العقاب المسلط عليهم بعصا الزيتون من جهة وطمعا في الحصول على نقاط أفضل من جهة أخرى « كان التلاميذ يقولون فيما بينهم: إن الذي يحسن الكذب أفضل من غيره، ومن يحسن ترتيب كذبه هو أفضل تلاميذ القسم ».

وعلى الرغم من البعد الشاسع بين موضوعات الإنشاء وواقع التلاميذ، فإنه يمكن أن ينظر إلى المسألة على أنها مثلا نوع من التدريب على استعمال الخيال، ولكن حين يتعلق الأمر بالدروس الأخرى كالأخلاق، والتاريخ فإن ذلك لا يقبل أي

تأويل سوى أنه نوع من الكذب المدروس والتزييف المنظم من قبل المنظومة المدرسية الاستعمارية، بهياكلها ومؤطريها على جميع المستويات؛ وهذه هي الرسالة التي أراد الكاتب أن يبلغها القارئ.

ولكن في الوقت الذي تحدث فيه المعلم عن الوطن الأم، لعب الكاتب على معاني الألفاظ، واستغل عنصر المفارقة والغموض الناتج عن استعمال لفظ الأم بمعناه المجازي الوطن، الذي فهمه الطفل بمعناه الحقيقي، فاتخذه أداة للسخرية من مقولة "فرنسا الوطن الأم"، تستمد قوتها من حيرة الطفل واندهاشه أن تكون له أم غير "عيني"، وقد عاد الكاتب مرة أخرى إلى استخدام الأسلوب الساخر المبني على عنصر المفارقة، حين راح المعلم يتحدث عن واجب المواطنين إذا تعرض الوطن للخطر « حين يأتي من الخارج أجانب يزعمون أنهم السادة فإن الوطن يكون في خطر، إن هؤلاء الأجانب أعداء، وعلى جميع السكان أن يصدوهم، ويدافعوا عن الوطن المهدد، وحينئذ تكون المسألة مسألة حرب، وعلى السكان أن يدافعوا عن الوطن بحياتهم وأولئك الذين يحبون وطنهم بقوة ويعملون من أجل خيره، يسمون وطنيين »

وبالطبع، فإن المفارقة هنا تبدو في التناقض الصارخ بين مضمون الكلام الذي يتحدث عن الشعوب التي تتمتع بالحرية والسيادة على أرضها، وبين واقع الجزائر وشعبها آنذاك اللذين كان يرزحان تحت نير الاحتلال الفرنسي، وقد أثار المعلم بإلحاحه على الموضوع اهتمام التلاميذ، وراح عمر يسأل نفسه: «وأين هم وأولئك الأشرار الذين يعلنون أنفسهم سادة؟ من هم أعداء بلده؛ أعداء وطنه؟».

وكان المعلم نفسه، وهو جزائري، يهدف إلى إثارة اهتمام تلاميذه، ولفت نظرهم إلى واقع بلدهم المحتل، حتى وإن بدا مترددا، وغير قادر على الافصاح عن كل ما في نفسه.

ومع ذلك فقد أبى عليه ضميره أن يترك تلاميذه حيارى، وقرر أن يصارحهم ببعض الحقيقة، رغم ما يمكن أن يترتب عن ذلك من نتائج خطيرة بالنسبة إليه، فيما لو علمت الإدارة بما قاله لتلاميذه، فتوجه إليهم موضحا بصوت خفيض، تمازجه نبرة غضب، ليقول لهم:

« ليس صحيحا إن قيل لكم إن فرنسا هي وطنكم »

قال ذلك باللغة العربية ،وهي المرة الأولى التي يسمع فيها المعلم حسن يتحدث بالعربية ، وفي ذلك دلالة، وأية دلالة، كأنه نزع عن وجهه القناع الذي كان يمثل به، ليظهر أمام تلاميذه بوجهه الحقيقي، ويضع حدا فاصلا بين كلام الكذب وكلام الصدق.

كان عمر يشعر دائما بأنه في سجن، سواء في المدرسة أو خارجها، ويزداد هذا الشعور حدة لديه في دار سبيطار حيث تقيم أسرته تلك الدار الكبيرة البائسة، التي تعج دائما بالضجيج والفوضى والخصومات التي لا تنتهي بين الجيران، وهي خصومات تعود أساسا إلى كثرة الأنفس التي تضمها الدار، وإلى مصاعب العيش التي يعاني منها كل ساكنيها:

البطالة والجوع، والفقر، والمرض، وكل أشكال البؤس، وهو ما ينعكس على ساكنيها، ويجعل أعصابهم متوترة، وصدورهم ضيقة، ونفوسهم متحفزة لرد الفعل العنيف.

وهناك عامل قلق آخر زاد من توتر أعصاب سكان "دار سبيطار"، وضاعف من شعور عمر بجو السجن، ألا وهو مداهمات الشرطة الاستعمارية للدار الكبيرة، التي تكررت في المدة الأخيرة، وفي كل مرة كانت الشرطة تقبض على بعض رجال "الدار"، وبعض شبان الحي بتهم متفرقة، وتلقي بهم في غياهب السجن.

كان أول من بحثت عنه الشرطة هو حميد سراج، إلا أنهم لم يعثروا عليه في البيت، ومع ذلك فقط تمكنوا من القبض عليه في مكان آخر، كما قبضوا على مجموعة من الفلاحين كان مجتمعا بهم، ثم قبضوا على زوج الجارة زينة، وهو نقابي مثل حميد سراج، لأنه احتج على غلاء المعيشة، ومن بعده قبضوا على بن ساري لأنه رفض الامتثال أمام عدالتهم وقال عنها: « إنها تحكم علينا دون حاجة إلى قيامنا بالذنب »

وكانت الشرطة تلجأ في ذلك إلى ما تسميه الحبس الاحتياطي، أو السجن الوقائي، بحيث لا تنتظر أن يرتكب الأشخاص ما يبرر القبض عليهم، « لتزج بهم في السجون، وكان رجال الشرطة يمارسون التعذيب على ضحاياهم لانتزاع المعلومات منهم »، ولذلك كان بعض المقبوضين عليهم يدخلون مركز الشرطة أصحاء، ويخرجون بعاهات مستديمة، وقد يسلمون الروح إلى بارئها بين يدي جلاديهم، وهذا ما حدث ل "الخال محمد"، الذي وصل مركز الشرطة في صحة جيدة وبعد ثلاثة أيام خرج ميتا.

من هذا الجو المشحون بالخوف والتوتر، بالإضافة إلى ضغط الجوع والفقر، انتهى عمر إلى ذلك الشعور الغريب الذي يلح عليه دائما، ويجعله يمازج في ذهنه بين دار سبيطار والسجن، لا سيما أن البيت العربي ببنائه المغلق نحو الداخل، وغرفه التي تتحلق حول الصحن الداخلي، حيث تؤوي كل غرفة أسرة بأكملها، يعطي الانطباع بشكل السجن وزنزاناته المصطفة إلى جانب بعضها البعض «وكان يبدو له أن أهله، وكذلك كل من كانوا يتلملمون حوله بلا نهاية، لهم هم أيضا نصيبهم من هذا السجن. لقد كانوا يحاولون أن يختزلوا وجودهم على مستوى زنزانة السجن »

بعض المراجع المعتمدة في المحاضرة:

- أحمد منور: أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية.
- محمد ديب: رواية الحريق.